تفكيك ظاهرة الإسلاموفوبيا، قراءة في كتاب: ضد الإسلاموفوبيا: العنصرية ضد المسلمين في أوروبا و آثارها الاجتماعية.

«بيترو باسو» و «فابيو بيروكو»

ترجمة. زينب سعيد وربيع ونيش

Dismantling Islamophobia, read in Anti-Islamophobia: Racism against Muslims in Europe and its Social Implications. Pietro Basso and Fabio Perrico

أ. سفيان حامدي

جامعة قفصة

تونس

Soufien.hamdi11@gmail.com

تفكيك ظاهرة الإسلاموفوبيا، قراءة في كتاب: ضد الإسلاموفوبيا: العنصرية ضد المسلمين في أوروبا وآثارها الاجتماعية.

«بيترو باسو» و «فابيو بيروكو»

ترجمة. زينب سعيد وربيع ونيش

أ. سفيان حامدي

الملخّص:

ابتغى أستاذا علم الاجتماع الإيطاليان "بيترو باسو" Pietro Basso و"فابيو بيروكو" Fabio Pieroco في كتابهما: "ضد الإسلاموفوبيا: العنصرية ضد المسلمين في أوروبا وآثارها الاجتماعية" الإشارة إلى مسألة جدّ مهمّة، أضحت من شواغل الفكر الإنساني، وهي ظاهرة الإسلاموفوبيا أو الرُّهاب من الإسلام التي شهدت تفاقما وانتشارا سريعين في مقتبل الألفية الثالثة، وباتت سببا من أسباب التهديم الحضاري، وقد حاولا التقصّي فيها معنى وتاريخا ومعاينة، وما جذبنا إلى هذه المحاولة هو عمقها التحليليّ وجرأة صاحبيْها في طرح مثل هذه القضية، لذلك رغبنا في تقديمها إلى الدارس العربي علّنا نساهم في زيادة وعيه واستفادته منها، لما في هذا الجهد التحليلي من إجابات عن كل ما قد يجول بذهنه حول حيثيات هذه المسألة القديمة المتجددة.

الكلمات المفاتيح: الإسلام، الفوبيا، الرهاب، الإسلاموفوبيا، الجالية المسلمة، بيترو باسو، فابيو بيروكو.

Abstract:

In their book Against Islamophobia: Racism against Muslims in Europe and its Social Implications, Italian sociology professors Pietro Basu and Fabio Peroco wanted to point to an issue that has become a concern of human thought, the phenomenon of Islamophobia, which has worsened. And a rapid spread in recent years and became a cause of civilizational destruction, and they tried to research it meaning, history and study, and what attracted us to this attempt is its analytical depth and the audacity of its owners so we wanted to present it to the Arab scholar in public to contribute to raising his awareness I benefited from it, because of the answers in this analytical effort on everything that the Arab researcher might have in mind about this renewed issue of the great.

Keywords: Islam, Phobia, Phobia, Islamophobia, Muslim Community, Pietro Basu, Fabio Peroko.

1- مقدمة:

الإسلاموفوبيا islamophobie هذا المصطلح العهيد المتجدد، طفق يضجّ به العرب من سجلّات الغرب وكتبهم ومواثيقهم. وقد تمّ نحت العبارة التي استعيرت في جانب منها من علم الارتجاجات النفسية لصوغ ظاهرة "الرهاب" أو " الوجل المرَضي" من الإسلام.

وقد تجلت ظاهرة الإسلاموفوبيا في حُلل عديدة أعربت عن الإجراءات العنصرية ضدّ المهاجر المسلم في القارة الأوروبية، خصوصا إثر أحداث الحادي عشر من أيلول الإجرامية، التي عقِبها ما يعرف بمشروع الحرب على الإرهاب، والتي ترافد في تعظيمها إلحاح دوائر عديدة مناوئة للإسلام والمسلمين.

ومنذ مطلع الألفية الثالثة، تزايد عدد الكتب العلمية المنشورة حول هذه الظاهرة من قبل المؤرخين وعلماء السياسة وعلماء الاجتماع وأساتذة الدراسات الدينية، واختلفت آراؤهم ومقارباتهم الفكرية للإسلاموفوبيا.

فمنهم فئة عملت على تفحص الطبيعة -المزعومة- الميالة إلى العنف في الدين الإسلامي، وروّجت إلى أن هذا الدين يحمل ميلا خطيرا وتعطشا كبيرا إلى سفك الدماء، بالمقابل نجد فئة لا بأس بها من العلماء المنصفين الذين تعمّقوا في تفحّص الخلفيات الإيديولوجية المقترنة بتلك الحملة الشعواء ضدّ الإسلام، ويعتبر الكتاب الذي ألّفه الإيطاليان بيترو باسو وفابيو بيروكو والموسوم ب "ضد الإسلاموفوبيا: العنصرية ضد المسلمين في أوروبا وآثارها الاجتماعية" من بين المؤلفات التي اهتمت بظاهرة الرّهاب من الإسلام دراسة وتحليلا.

فما هي أهم الأفكار التي وردت في هذا الكتاب؟ وما حدود هذا الطرح؟

وقد اخترنا الاشتغال على هذا الأثر الفكري نظرا إلى أهمية ما احتواه من طرح؛ في محاولة منه للإجابة على عدة نقاط يشوبها الغموض إزاء هذه القضية الجادة المستجدة.

2- التقديم المادي للكتاب:

قامت دار فضاءات الأردنية للنشر والتوزيع بإصدار كتاب: "ضد الإسلاموفوبيا: العنصرية ضد المسلمين في أوروبا وآثارها الاجتماعية" للباحثين الإيطاليين بيترو باسو وفابيو بيروكو، وترجمته إلى العربية وحققته الباحثة "زينب سعيد" والكاتب ربيع ونيش. وقد حوى الكتاب 223 صفحة، وينقسم إلى مقدمة وفصلين. يتضمّن كلّ فصل مجموعة من القضايا الجوهرية المهمة.

الفصل الأول: ضد الإسلاموفوبيا لبيترو باسو.

الفصل الثاني: العنصرية المعادية للمسلمين في أوروبا لفابيو بيروكو.

3- قراءة في المحتوى:

3-1- المقدمة:

يستهل المترجمان "زينب سعيد" و "ربيع ونيش" تقديم الترجمة العربية للكتاب بالإشارة إلى التفاقم الكبير للرهاب من الإسلام أو ما يعرف بظاهرة " الإسلاموفوبيا" التي أفرزتها جملة من الذرائع السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية المتداخلة، والتي وجدت ضالتها في سياق الحرب المثارة من قبل أوروبا على الشعوب العربية الإسلامية، والمهاجرين النازحين والوافدين على حدّ سواء.

كما يلمّح المؤلفان إلى الدور المحوري الذي لعبته وسائل الإعلام الغربية في تأجيج المشاعر العدائية تجاه الدين الإسلامي، حتى أضحت: "الداعم الأول لأكبر وأطول وأقذر حملة دعائية للعصر الليبيرالي الحديث، حيث تمكنت من نحت جملة من الصور النمطية السالبة، قوامها أن الإسلام دين دموي يشجّع على الإرهاب وسفك الدماء وأن هذه العقيدة الجامدة المتطرفة، والقمعية تحمل العداء للغرب"

حيث أنه في خضم الأزمات التي تعصف من وقت إلى آخر بالثنائية العلائقية ما بين أوروبا والعرب، ساهمت بعض وسائل الميديا الغربية في إذكاء مشاعر الهيْعَةِ والترهيب من الإسلام والمسلمين ورسم صور تفشّي الإسلام في أوروبا بوصفه خطرا داهما على مسيرتها التاريخية. وهي صورة متوارثة، تغلغلت في الوجدان التاريخي، متجدّدة في العقدين الأخيرين تؤصّل لحالة من الوجل المرضي من الإسلام.

ويسوق المؤلفان في تقديمهما جملة الإجراءات والسياسات التي اتخذها الاتحاد الأوروبي لتقييد حركة المهاجرين من خلال سيل من القوانين والتعاليم الإدارية والتشريعات والتدابير العنصرية العلنية على مختلف مناحي الحياة الاجتماعية، حتى تكاد تندثر الحقوق لتصبح الظروف الحياتية أشبه باللظى، بل لعلها في كثير من الأحيان السعير بذاته.

3-2- الفصل الأول: ضد الإسلاموفوبيا:

لقارئ هذا الفصل بتمعّن أن يلاحظ معالجة رجل الاجتماع بيترو باسو المعمّقة لجملة من القضايا المسؤولة على صناعة الإسلاموفوبيا، حيث بدأ بتفصيل القول في تاريخية الرّهاب من الإسلام، ملمّحا إلى قِدَم نعت الغرب للإسلام بأنّه الوجه الآخر للإرهاب، ناقدا من يرى أنّ ظاهرة تبشيع الإسلام وليدة الألفية الثالثة، معتبرا ذلك ادعاء باطلا، فالعداء الذي يكنّه الغرب ضد الإسلام قديم قدم الدين الإسلامي نفسه، إلاّ أنّ حدّته استفحلت في وقتنا الراهن.

إنّ الخوف من الإسلام والمصطلح المشتقّ منه، يعتبر ترجمة لمشاعر عدوانية دفينة في وعي المواطن الغربي ضدّ الإسلام والمسلمين وحضارتهم، وعليه، فإنّ الحركة التقزيمية ذات الطابع الشيطانيّ تجاه الإسلام ذات أصول تاريخية متجذّرة في التاريخ الغربي.

كما يناقش المؤلف فكرة أن العالم الإسلامي متطابق وغير تاريخي إذ أنّ:" كل شيء فيه دين".

حيث يخال الغربيون أنّه، في الوقت الذي حلّت فيه القومية محل الدين، مازال الإسلام يؤدي دوره فقط كقوة دينية. وهو ما جعل منه جسدا أحاديا لا يتأثر بالتغيير.

«إذ هو جبل جامد لا يتحرك منذ 1400 سنة ولا يخرج من أعماق عمائه ولا يفتح أبوابه للمكتسبات التي حققتها الحضارة ولا يريد أن يعرف شيئا عن الحرية وعن العدالة والديمقراطية والتقدّم، ولا يزال يعيش في بؤس القرون الوسطى، ويزهر في ظلامية وتطهيرية دين لا غير إنتاج الدين»

وفي ثنايا تحليله تفطّن المؤلف الإيطالي إلى أنّ الغاية من التشويه الغربي لصورة الإسلام، هي ترسيخ نظرة دونية اختزالية له بوصفه دينا وثقافة من جهة، وتعميق الهوة الفكرية الحضارية بين المسلم العربي الإرهابي الرجعي والرجل الغربي الديمقراطي الحداثي المتنور من جهة أخرى.

كما يسلّط بيترو باسو في هذا الفصل الضوء على مسألة ذات طابع خاص وحسّاس تتعلّق بحال المرأة الإسلامية وتموقعها الدائم بين "المطرقة والسندان". حيث تحاول التقارير الغربية في غالب الأمر أن تروّج لرسالة مفزعة، فحواها اضطهاد المرأة في الإسلام منذ القدم. وحقيقة الأمر أنّ أصحاب هذا الرأي يستغلون تلك الإساءة المزعومة من أجل تعزيز السياسة المعادية للعنصر الإسلامي.

وفي هذا الإطار، يعلن المؤلف انحيازه الصريح إلى الأدبيات النسوية التي تنتمي إليها الباحثة المصرية ليلى أحمد (1940) التي ترى أنّ إسلام البدايات الأولى قد سما بوضعية المرأة في شبه الجزيرة العربية، وأعاد الاعتبار إلى العنصر النسوي بضمان بعض حقوقها المادية، وبتأكيده على أخلاقيات المساواة بشكل عام، لكنّ النظام الذي أصبح أبويًا في التاريخ الإسلامي يعود إلى تداخل الثقافات المغايرة التي كانت مهيمنة على المنطقة.

كما يشير الكاتب إلى أن خضوع المرأة الاجتماعي والسياسي للرجل لم يكن حكرا على المجتمعات الإسلامية، بقدر ما هو ميزة عامة ميّزت كل المجتمعات ما قبل البرجوازية، المتعددة الآلهة والتوحيدية على حدّ سواء. أما عن جعل قصة عدم المساواة التاريخية موضع نقاش، فإنّ عاصفة الثورة الفرنسية هي التي غيّرت الوعي الحديث في جميع الثقافات، بما فيها الثقافة الغربيّة نفسها.

تحدّث الكاتب أيضا على وضع الجاليات العربية والمسلمة المقيمة في القارة الأوروبية، معتبرا أنّ الهجرة المتزايدة للمسلمين باتّجاه الغرب هي أحد العوامل التي عزّزت كراهية الإسلام والخوف منه، ويرجع هذا الموقف السّلبي للغرب إزاء الإسلام إلى سببين، يتمثّل الأول في الاختلاف العرقي والخوف من فقدان الإطار الثقافي في ظل التعددية الثقافية الناجمة عن زيادة الهجرة، ويعود الثاني إلى الجانب الإحصائي من خلال زيادة عدد الوافدين في مقابل تناقص أعضاء الكنيسة، وهو ما يزيد من احتمالية أسلمة الغرب. ذلك أنّ المهاجرين الوافدين ذوي الأصول العربية المسلمة على الرغم من تركيبتهم المتنوعة الوطنية واللغوية والثقافية والدينية، وتنوع قناعاتهم وسلوكياتهم الفردية أيضا، يشكّلون، إذا تمّ أخذهم في مجموعهم، نصف المهاجرين الوافدين تقريبا على أوروبا.

كما لم يفت الكاتب الوقوف عند حادثة شارلي آبدو أو ما يسميه: "إشراقات 2015 المأساوي".

ذاكرا شأن الدول الأوروبية التي غالبا ما تكون مقسّمة وفي خلاف، إلا أن التأهّب لإعلان "الحرب على الإرهاب الجهادي" إثر حادثة شارلي أبدو جعل منها تتعاضد لتشن حملة إسلاموفوبيا، لم تعاين أوروبا مثيلا لها من قبل.

وهكذا، ضاعفت تلك المجزرة درجة التخويف من الإسلام في أوروبا، وهو ما ولّد لدى المسلمين الكثير من الشّكوك من تداعيات ذلك الحدث، خاصة في خضمّ ما خلّفته من ردود أفعال عنيفة تجاه المسلمين.

3-3- الفصل الثاني: العنصرية المعادية للمسلمين في أوروبا. فابيو بيروكو

خصّص عالم الاجتماع الإيطالي "فابيو بيروكو" هذا الفصل لطرح موضوع العنصرية التي رافقت المهاجر العربي إثر الحرب العالمية الثانية، وتطورها وصولا إلى ما هي عليه اليوم، مسلّطا الضوء على أبرز المحطات التي مرّت بها الجالية العربية في الغرب الأوروبي منذ ستينات القرن الماضي، وردود فعل السّلطات الأوروبية تجاه هؤلاء الأغراب في كلّ مرحلة.

إذ يستهلّ الكاتب الفصل بالإشارة إلى بدايات تحوّل أوروبا إلى قارة جاذبة للهجرة الوافدة، وبروز الحاجة الملحة إلى اليد العاملة إبان الحرب العالمية الثانية من أجل إعادة البناء، ذلك أنّ بعض البلدان مثل فرنسا وألمانيا وبريطانيا وبلجيكيا وسويسرا التي ركّزت على التّصنيع الدّاخلي كانت في أمس الحاجة إلى عدد كبير من الطاقات الشغيلة. وكانت تجد ظالّتها خاصة في البلدان الأجنبية البعيدة على غرار المغرب والجزائر وتونس...

ولم يفت المؤلف أن يسوق ملاحظة مهمّة، وهي أنّ هذا الانفتاح على الهجرة الوافدة، وتشجيع المؤسّسات والسوق لنسبة هامة من العقود، على الأقل في مرحلة ما قبل الأزمة الهيكلية سنة 1974، لا يعني إطلاقا أنّ الغرب الأوروبي قد فتح أبواب الودّ في وجه الوافدين العرب، إذ إن إدماج الوافدين في المجتمع كان يتّسم بالتبعية والدونية.

وقد وقف الكاتب، خلال تحليله، على مرحلة التحوّل الفارقة في تاريخ الوفود العربيّة الإسلاميّة نحو العالم الغربي، والمتمثلة في الانتقال من هجرة العمل إلى هجرة الإعمار والاستقرار ، أو ما يعرف بالهجرة العائلية، وسياسات لمّ الشمل العائلي، التي ستتطوّر في التسعينات، وسيتفاقم أمرها في الألفية الثالثة، وهو ما سيترافق مع ارتفاع مؤشّر الانتهاكات والكراهية تجاه العنصر العربي، مما جعل العديد من البلدان الأوروبية تعمل على محاولة التصدّي لها بكلّ الوسائل القمعية والوحشية، مكرّسة ثقافة العلوّ والتميّز الغربي في مقابل الرجعيّة والتخلّف العربي.

ولمواجهة تلك الموجات الوافدة عملت السّلطات الأوروبية على اتّخاذ تدابير صارمة من أجل تقليص الهجرة القادمة من الشرق، عبر التقليص الحاسم من الحصص، والانتقاء الصارم لتحديد العناصر القليلة القابلة حقّا للاندماج في المجتمعات الغربية، وتقييد حقوق المهاجرين الوافدين والقاطنين المسلمين، خاصّة في ما يتعلّق بكلّ ما يرمز إلى الخصوصيّة الثقافيّة والدّينيّة، (كالحجاب واللباس)، وعدم الاعتراف بالإسلام في المجال العام.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ بيروكو في هذا الفصل يتوافق تماما مع ما ذهب إليه باسو في الفصل الأول حول مسألة الصورة النمطيّة السلبيّة التي روّجت لها بعض الأطراف المناهضة للإسلاموفوبيا، حيث تمّ تصوير الإسلام بشكل مستمرّ وخاطئ على أنّه دين عنف وكراهية، فأصبح المهاجرون الوافدون معرضين إلى موجات نبذ وكراهية، لما راج عنهم من اكتسابهم لعقلية جماعية ومتحجّرة مشتقّة من عادات الخضوع لدين متخلّف، لا يعطي أيّ اعتبار للفرد، وهم في نفس الوقت أنانيون متشدّدون زائفون وماكرون، يتظاهرون بكونهم مواطنين صالحين، إلا أنهم منافقون بالفطرة، وغير مخلصين للبلدان التي استضافتهم .

ويوجّه الكاتب هنا أصابع الاتّهام إلى أحزاب اليمين المتطرّف وإلى المنظّمات والحركات المعادية للإسلام الراعية لظاهرة رهاب الإسلام محمّلا إياهم المسؤولية في ما آل إليه حال الجاليات المسلمة في القارة العجوز، وما قد ينجرّ عن ذلك من ردود فعل قد تكون غير محبذة في أغلب الأحيان.

وختم فابيو بيروكو الكتاب بالإشارة إلى تأثيرات الإسلاموفوبيا على المجتمعات المحلية، وخصوصًا على الطبقة العاملة التي تعاني من عنصرية إيديولوجيّة واضحة، بل وأبصر فيها إذلالًا للشعوب الأصلية التي تسعى إلى إقامة خندق فاصل دون أي جسور ممكنة. وهو يقدّر أن مواجهة هذه العنصرية تتطلّب تعارفا وتواصلا بين الشعوب، ونبذا للصّراعات العرقيّة، والتّهارش بين الفقراء حيث يستدعي مقولة "إيمي سيزير" (1913-2008) "Aimé Césaire "، الذي كتب أن "الاستعمار يقضي على المستَعمَرين، لكنه أيضًا يُذِلُّ المستعمِرين".

بناء على ما سبق، نلاحظ أنّ التفاصيل والحيثيات التاريخية التي التمسها الباحث الإيطالي سندا لمواقفه، تعين على استيعاب الوضع المقيت للجاليات المسلمة في البلاد الغربية، وتكشف، في الآن ذاته، عن حالة الهوان التي أضحت عليها الجماعات العربية في المجتمعات الأوروبية.

3-4- حدود االطرح:

لئن بدا لنا هذا الطرح طريفا في بعض جوانبه، حيث استطاع الكاتبان إلى حدّ بعيد الإجابة على جملة من الأسئلة المتداولة، وإماطة اللّثام على بعض الالتباسات الملازمة للمفكر الباحث في مسألة الخوف المرضيّ من الإسلام، فإنه لا يفوت المتلقي أن يستشعر في جانب كبير منه بعدا عاطفيّا في الطرح من قبل المؤلفين اللذين عُرفا بميلهما وتعاطفهما مع الفئات العربية الإسلامية المهاجرة. ولئن كان هذا ممّا يغري القارء العاديّ، فإنّ الباحث المتعمق يفضّل الحياد والموضوعية في البحث بدلا من الموقف المتعاطف. وكان يمكن العكوف أكثر على تفكيك ظاهرة "الإسلاموفوبيا" وتداعياتها وأسبابها الداخلية ومصادرها المباشرة..

4- خاتمة:

نخلص من تفاصل مقاربة الكاتبين إلى القول في مسألة الإسلاموفوبيا مفهوما وتحليلا وتاريخا، إلى أنّ ظاهرة الرهاب من الإسلام، قد تشكّلت كهيئة أو كحالة مجتمعية داخل الغرب الأوربي بناء على مسار مُلْتبِس، تداخل فيه الميل العنصري بفكرة الغيريات من خلال اختزال المسلمين داخل إطار العنصرية، وحجزهم وحجرهم ضمن بوتقة الانتماء اللاّهوتي. كما أن هذا الخوف من الإسلام، ما كان ليستعر ويتضخم، لو لا تظافر جهود العديد من الأطراف المناهضة للدين الإسلامي بدرجة أولى.

ولا يفوتنا، في خاتمة هذا التقديم، تثمين جهد المترجمين لهذا العمل، إذ أنّه لا يقل أهمية عن العمل ذاته، وذلك من خلال المساهمة في نشر المحتوى على أوسع نطاق ممكن، وتسليط الضوء على مثل هذه القضية الخطيرة في محاولة لإيجاد حلول جذرية للحدّ من تفاقمها، بدلا من أن توضع على رفوف النّسيان، فتكون درجة جديدة على سلّم صناعة ظواهر هدّامة للكيان المجتمعي العالمي.